**المقاربة السيميائية**

**في ماهية السّيميائية:**

تعددت مصطلحات السيّميائية من باحث إلى آخر، فهناك من يقول بعلم العلامة وعلم الإشارة والسّيمولوجيا والسّيميوطيقا ... وغيرها من المصطلحات الدّالة على اعتبار العلامة اللّغوية بوصفها إشارة تدّل على أكثر من معنى، بمعنى تنظر إلى أنظمة العلامات بوصفها أنظمة رامزة ودالة، وهذه النظرة متجذّرة في الدّراسات اللّغوية القديمة قدم الإنسان، وفي الحضارة الصينية واليونانية والرومانية والعربية، لكن هذه الملاحظات بقيت أسيرة تجربة ذاتية لا ترقى إلى مستوى النّظر العلمي الموضوعي.

وقد بدأت السّيمائية تتبلور مع تقدّم العلم والعلوم الإنسانية حيث مرّت بمراحل عديدة، وأوّل باحث قدّم مصطلح السّيميولوجيا هو الفيلسوف "ج، لوك"، ولكن هذا العلم لم تكتمل أجزاؤه، بل أثمر ثماره في القرن العشرين. تدرس السّيميائية العلامات في كنف الحياة الاجتماعية، ونظام الكون بكلّ ما يحويه من علامات ورموز، هو نظام ذو دلالة، أي السّيميائية هي علم يدرس بنية الإشارات.

**مفهوم** **السيميائية**:

يمكن اعتبار السيميائية **علم يدرس «مختلف العلامات والإشارات** أو ما ينوب عن شيء آخر كجزء من منظومة ما؛ **أي كيف يصنع المعنى**؟ **وكيف يمثل الواقع**؟ سواء بالكلمات أم بالأصوات؟ أم بلغة الجسد؟ أم الإشارات المرئية...

تنظر السيميائية إلى العلامة اللّغوية بوصفها إشارة مكثّفة بالدّلالات والإيحاءات، والسّيميولوجيا اهتمت بالعلامات اللّغوية **وغير** اللّغوية في آن واحد، فالنظام السّيميولوجي قد يكون رسما ليس بالضرورة أن يكون لغة، المهمّ أن يكون التعبير بوساطة أنظمة من العلامات (لغوية وغير لغوية).

ينطلق الباحث السّيميوطبقي من الشّكل أو الدّوال لمساءلة المضامين أو المدلولات لفهم ما تخفيه الدّوال من إيحاءات، **والمهمّ ليس الوصول للمدلولات في حدّ ذاتها**، وإنّما هو **طريقة تأليف هذه المدلولات**، ومجاورة بعضها البعض، ويبقى النظر في العلاقات المؤلفة لهذا الشّكل، وكذا وظيفة الوحدات والملفوظات هو ما تطمح إليه السّيمائية والسّميولوجيا والسّميوطيقا، وإن تعددت هذه المصطلحات فإنّ غايتها واحدة.

وهذه المصطلحات شهدت تجلّيات محتشمة في الدّراسات التراثية القديمة، إلاّ أن التأسيس الحقيقي للسّيميائيات، قد ظهر بشكل واضح مع العالم اللّغوي السويسري دي سوسير حيث تنبأ بظهور هذا العلم، وما قدّمه الفيلسوف الأمريكي **"تشارلز سندرس بيرس"** في حديثه عن العلامة والمؤشر والأيقونة، لقد حاول بيرس أن يقدّم من خلال نظريته طريقة في الفهم عن طريق **الاستدلال** (المقصود بالاستدلال استخراج الجواب أو النتيجة بناء على معلومات معروفة مسبقا). حيث تحدّث **بيرس** عن الخلفية المعرفية وعلاقتها بالعلامة، لقد أعطى قيمة للخلفية المعرفية، التّي اصطلح عليها **بالمعارف القبلية**، هذه المعارف تساعدنا على تأويل العلامة وهذا هو منطق العلامة= السيرورة التّي لا تكون إلاّ بالخلفية.

**معنى (2)**

**علامة:** معارف قبلية

**تأويل**

**إيحاء**

**معنى (1)**

معنى نهائي

**تبشير دي سوسير بالسّميولوجية:**

إنّ تحليل دي سوسير للرّموز اللّغوية قاده إلى تصوّر علم جديد **سيدرس الرّموز غير اللّغوية،** في قوله «بوسعنا أن نتصوّر علما يتخذ موضوعا له دراسته حياة الرموز في رحاب الحياة الاجتماعية، ويصبح هذا العلم جزءا من علم النّفس الاجتماعي، وبالتّالي من علم النفس العام، ونحن نطلق عليه "السّيميولوجية" أو علم العلامات وندرس فيه كيفية تكوّن الرّموز والقوانين التّي تحكمها، ولمّا كان هذا العلم غير موجود حتّى الآن فلا يمكننا أن نقول كيف سيصبح، لكنّنا نؤكد أنّ من حقّه أن يوجد وأن مكانه محفوظ له مسبقا، وليس علم اللّغة إلاّ جزءا من هذا العلم العام، والقوانين التّي سيكتشفها علم العلامات هذا يمكن تطبيقها على علم اللّغة، وبهذا يحتل مكانة المحدّد في مجموعة العلوم التّي تدرس الوقائع الإنسانية المختلفة».

1. **الأصول الفلسفية واللّسانية للسّيمائية:**
2. **الأصول الفلسفية:**

السّميائية أو السّيميوطيقا **علم موغل** في القدم، أيّام **الفكر اليوناني** القديم مع أفلاطون وأرسطو الذّين أبديا اهتمامهما بنظرية المعنى، وكذلك الرواقيين الذّين وضعوا نظرية شاملة لهذا العلم بتمييزهم بين الدّال والمدلول والشّيء، ولم يكن التراث العربي بعيدا عن مثل هذه المشاغل، فقد أولى المناطقة والأصوليون والبلاغيون والمفسّرون وغيرهم عناية كبرى بكلّ **الأنساق الدّالة**، وقد تجلى ذلك في أطروحات الفلاسفة الإسلاميين من أمثال الغزالي وابن سينا اللّذين تحدثا عن **اللّفظ بوصفه رمزا** وعن المعنى بوصفه **مدلولا**.كما خصّص ابن خلدون فصلا في مقدّمته لعلم أسرار الحروف.

السّيمياء قد عرفت تجلّياتها الأولى في كتابات الفلاسفة الغربيين والعرب، وقد جاء ذلك في سياق حديثهم عن العلامة والدلالة اللّفظية، وقد بقيت هذه الجذور السّيميائية معزولة عن بعضها البعض، وتفتقر إلى أبنية نظرية تؤطّرها وتعيد تماسكها، لذا بقيت عاجزة عن بناء كيان تصوري يجعل منها **علما قائما بذاته.**

ب)- **الأصول اللّسانية:**

يعتبر دي سوسور أوّل علماء السّيميائية، فقد كانت نظريته في اللّغة مؤسّسة إلى حد كبير على فحص العلامة اللّغوية، إلاّ أنّ السّيميائية بأسسها الحديثة كانت قد ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين بدءا من العمل الذّي قام به المنطقي الأمريكي "شارل سندرس بيرس".

نشأت السّيميائية على أنقاض اللّسانيات، لكنّها تختلف عنها لأنها تجاوزت البحث إلى العلامة غير اللغوية، فالنقد السيميائي كنشاط فكري خاص، يسعى دوما إلى تعزيز أرضيتة تعزيزا ألسنيا، حيث أضحى حديث سوسير عن ثنائية (الدال والمدلول) والعلاقة بينهما، وكذا خطية الدّال والآنية (الوصفية)، وثنائية الظاهرة اللّغوية (لغة/ كلام)، و (اختيار/ تأليف)، (صوت/ معنى)، (واقع/ خيال)، (حضور/ غياب)، وكذا المحايثة، كلّ هذه **الثّنائيات كانت بمثابة المقدّمات النظرية** التّي استثمرتها المناهج النّصانية في ولوجها عالم النّص الأدبي، وتأتي السّيمائية في طليعة هذه المناهج، ويتجلّى ذلك في تركيزها على **القطب الدّاخلي للنّص**، هذا ما يضفي صفة الألسنة على النقد السّيميائي، ويتمظهر البعد اللّساني في البحث السّيميائي عند ثنائية **الدّاخل والخارج**، وهي الثنائية التّي انبنى عليها منطق النّقد الأدبي الحديث والمعاصر، من خلال الانتصار لقطب الداخل الّذي انجرت عليه البنيوية والسّيميائية والأسلوبية ...الخ.

كان بحث سوسير يركّز على العلاقات التّي تربط بين الوحدات والعناصر اللّغوية، لأنّ قيمة كلّ عنصر تحدّد من خلال علاقته بالعناصر الأخرى: «إذ لا يمكن فهم وظيفة الأجزاء إلا في علاقتها الاختلافية مع الكلّ...»، وتعدّ **فكرة الهوية العلائقية** ذا أهمية فائقة بالنسبة للتحليل البنيوي والسّيميائي لأنّه عند صياغة قواعد النظام من الضروري أن نتعرّف على الوحدات التّي تمارس فيها القواعد عملها، معربا عن القوانين العامّة التّي تتحكم في هذه الرّموز، مشيرا إلى أنّ موضوع اللّسانيات الوحيد هو **دراسة اللّغة في ذاتها ولذاتها**، هذه النّظرة تبنّاها السيميائيون فيما بعد، في دراستهم للأحداث اللّغوية للنّص وما تزخر به عطاءات جمالية في سياق العلاقات الاعتباطية والتّي تفرض دلالات لانهائية.

**2/ التجليات النظرية للسّيميائية عند النقاد الغربيين:**

**أ) السّيميائية عند بيرس (1839- 1914):**

يعدّ بيرس من النّقاد الغربيين الأوائل في التّأسيس لعلم السّيميوطيقا أو علم العلامات، وقد ظهر كتابه «**كتابات حول العلامة**» قبل كتاب سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة الصّادر سنة (1916)، ويتمثّل منطق بيرس في **الرّبط بين المنطق والسّيميولوجيا**، وأشار إلى أنّ السّيميوطيقا تشغل فضاء أوسع من اللّسانيات، حيث يشمل جميع العلوم الإنسانية والطبيعية، قال بيرس: «باستطاعتي أن أدرس كلّ الظواهر في الكون، كالرّياضيات والأخلاق، والميتافيزيقا والجاذبية الأرضية، والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التّشريح المقارن، وعلم الفلك، وعلم النّفس على أنّه نظام سيميولوجي».

وبهذا التصوّر تتحول السّيميائية إلى جهاز إجرائي غايته القصوى البحث في مختلف الأنظمة الدّالة (لغوية وغير لغوية) وفي مختلف العلوم سواء كانت إنسانية أو عقلية، لأنّ بيرس أدرك أنّ هذه العلوم جميعا هي علوم قائمة على مبدأ الإشارة أو العلامة.

**مفهوم العلامة (الإشارة) عند بيرس:**

ينطلق بيرس في تحديده **لمفهوم العلامة** من منطلق **السيرورة الدلالية التداولية** (**السيميوز**) القائم على مقولة **الثلاثية** على خلاف ما جاء به دي سوسير الذي حصر مفهوم العلامة في مقولة الاختلاف أو التعارض الثنائي (دال ومدلول)، فالعلامة أو الممثل هو: «شيء يمثل شيئا ما بالنسبة لشخص ما بمظهر ما أو بإمكانية ما»، إضافة إلى ذلك اعتمد بيرس في تقسيمه للعلامة على مبدأ التثليث انطلاقا من العناصر المكونة للعلامة وهي: **الممثل والموضوع والمؤول**:

**الممثل:**

ويقابل عند سوسير "الدال" وهو الوسيلة التي تستعمل للدلالة، أو حامل الإشارة، أو الشكل الذي تتخذه الإشارة اللغوية، أو غيرها من العلامات، وتعني الإشارة باعتبارها ممثلا شيئا ما إلى الشخص؛ أي تولد في فكرة معادلا لها، أي إشارة متطورة، وقد أطلق بيرس على الإشارة المولدة اسم تأويل الإشارة الأولى، وتنوب الإشارة عن شيء ما، ليس من جميع نواحيه، إنما عن فكرة أطلق عليها أرضية الممثل.

**الموضوع:**

بعضهم يسميه الموجودة (lobjet): وهو المشار إليه، أي الشيء الذي تحيل إليه العلامة، ولا يوجد له مقايل عند سوسير.

**المؤول (linterpretant):**

وهو إنما **المعنى** الذي تحدثه الإشارة، وهو في إشارة ثانية في فكر المؤول فيها معنى الإشارة الأولى، إذا معنى الإشارة لا يحضر في ذاته، إنما يبرز من خلال التأويل في ذهن المؤول، ويقابله عند سوسير **"المدلول"** مجردا من أبعاده، غير أن المؤول يملك صفة لا توجد في المدلول.

انطلاقا من هذه المفاهيم فإن العلامة لا تستقيم بالمعنى الكامل إلا بتعاضد ثلاثة فروع، على أن يكون كل فرع عضو من الأركان الثلاثة السابقة.

نجد أن بيرس ينظر إلى **العلامة نظرة ثلاثية الأبعاد** تشكل واحدة منها في الذهن علامة، بل لابد من حضور الأبعاد الثلاثة في الذهن حتى تكونها وهي:

فالعلامة إذن في أطروحات بيرس هي كيان **ثلاثي المبنى** وليس ثنائي كما هو الأمر عند سوسير (العلامة= دال+ مدلول).

(العلامة) ꓿ ممثّل

**مؤوّل**

**موضوع**

فالعلامة عند بيرس: "ممثل، موضوع، مؤوّل".

مثال: **صورة الموناليزا**: (تحليل جيرارد دولودال).

**1- ممثل**: شكل، ألوان ...

**2- موضوع**: صورة امرأة من طبقة معينة.

**3- مؤول**: ترمز إلى الحزن في المرأة .

\* يتوصّل **جيرارد دولودال** إلى أنّها صورة أمّة، فهو يحبّها لدرجة غير عادية تعبّر عن عقدة نفسية يعاني منها الكاتب، وهي صورة أمّة مندمجة مع صورة ملكة.

**المراجع المعتمدة:**

1- Ferdinand de Saussure,  Cours de linguistique générale

2- أمبرتو إيكو، العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنغراد.

3- صلاح فضل، نظرية البنائية.

4- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي.

5- د. وهيبة جراح، محاضرات في مقياس المناهج النقدية المعاصرة، المركز الجامعي ميلة.

6- د. يوسف رحيم، محاضرات في مقياس مقاربات نقدية معاصرة، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية.